



عندما يموت اللون في المنفى .. محنة المبدع العراقي

زياد حيدر الهارب من السجون والحروب

الصدا الثقافي

رحل عن عالمنا الفنان التشكيلي زياد حيدر وهو في قمة ابداعه وتألقه يوم الثلاثاء المصادف ٢٠٠٦/١/٣ أثر سكتة قلبية لم تمهله طويلا في مرسمه بمدينة امستردام بين فرشاته ولوحاته التي فرشت جدران اقلية الجديد حيث كان مشغولا بترتيبه لأفتتاح معرضه الشخصي بعد سنوات من الكفاح والمعاناة، والابداع المتواصل.

كان الفنان زياد حيدر موهوما بأشياء لا حدود لها، فبعد غربته التي جاوزت الخمسة عشر عاما بين الأردن وسوريا وهولندا، وبعد أن عاش غربته وعذاباته داخل العراق اiban السبعينيات والثمانينيات، استنزفت منه خمس

سنوات في اقبية سجن ابو غريب بحكم سياسي جائر من محكمة الثورة سيئة الصيت، ومثله عسكريا في جهات القتال مع ايران إلى أن حانت فرصة هروبه من العراق بداية التسعينيات ليستنشق هواء الحرية النقي، ويبدأ رحلته الفنية من جديد.

لم يشهد بلد مثل العراق مثل تلك الماسي التي مرت عليه وعلى اجيال ابناءه المتعاقبة، حيث ضاقت مساحة الحرية والبوح والصراخ، واطبقت جدرانها الثقيلة الصماء على الضمائر والعيون والأفئس..

حرب تجر حرب ومعتقلات وتصفيات وغياهب مجهول في كل بيت لها نصيب وفاجعة.. كان لبدعي العراق ومفكره نصيب وافر من هذه المآسي، حيث غاب عن غاب، وانزوى اخرون، وترك العراق هائما تحت سماءات غربية من استطاع

النفاذ بجلده من المحرقة الكبيرة ليحافظ على نقاوة فكره وبقايا مقاومة لم يستطع طاغية العراق سحقها.

اتذكر الهجرة الكبيرة للمقفي ومبدعي العراق واخر سبعينيات القرن الماضي بعد أن بسط الدكتاتور ظله كاملا على شعب ومقدرات العراق.. هجرة لم يكن ابطالها فقط الشيوعيون.. بل شملت مستقلين وبعض القوميين المختلفين مع اسلوب وادارة النظام، واسلاميين.. اكراد وعربا ومن جميع الأديان والطوائف، لكن في مقدمتهم بطبيعة الحال اليساريون الذين خذلتهم الجبهة والتحالفات التي لم تستند إلى أسس وطنية ومشاركة في الوطن.

كان زياد حيدر ضمن من بقي منا داخل العراق بسبب المنع والسجن والمضايقة، أنهى دراسته في اكااديمية الفنون الجميلة

عام ١٩٧٦ ليبدأ مشواره الفني منذ ذلك الوقت، مشاركاً في معارض مهمة داخل العراق وخارجه، مبدعا يحمل هما وطنيا وروية فنية جسدها باعمال تناصر الإنسان وتحكي محتنه.

في لوحته المشهورة (افضاج لعبة ٢٤٠×١٢٠ سم) التي رسمها اواسط الثمانينيات تعبير واضح عن الصرخة المدوية لسنوات العذاب التي واجهها في حياته، حيث ينفجر رأسه فجأة وسط اللوحة وتتسطى منه كرات اشبه بكرات البليارد عليها أرقام تمثل أعوام ميلاده وسجنه ورقمه العسكري وتواريخ مأس آخر مرت بحياته، لوحة اداة وتعبير صادق وصارخ لكابوس الاضطهاد والخوف الذي عاشه جبل اراد الخروج من الشرنقة وتلاقيها التي التفت على أعناق العراقيين.

توفي الفنان زياد حيدر عن عمر ٥١ عاما

وفي راسه احلام ومشاريع فنية وأمل في العودة إلى العراق ليبدأ مشواره من جديد، حيث حلمه بفتح مدرسة خاصة لتعليم الرسم للموهوبين من الشباب كما صرح في آخر حديث له لأذاعة العراق الحر، لكنه عاد ليحضر تربية العراق إلى الأبد ويبقى ابداعه في ذاكرة الفن التشكيلي العراقي وفي قلوب اصدقائه من المثقفين والفنانين العراقيين الذين فجعوا برحيله في هولندا وفي العراق وكل المنايا العراقية (حيث تحول تشييعه في امستردام لمهرجان مهيب حضره اصدقاؤه ومحبهه من كل ارجاء هولندا ومن خارجها وسط مشاعر الدموع والأسى لرحيله المفاجئ والمبكر) ولينقل جثمانه إلى العراق على نفقة رئيس جمهورية العراق في التفاتة وطنية وإنسانية، ووفاء لمبدع عاش العراق في ضميره وفنه.



حوار مع الرواق الفنان التشكيلي زياد حيدر:

الفنان العراقي المغترب يملك حرفة عالية وخزينا متراكماً

(٢-١)

كريم النجار

امستردام

حيدر وفترة قصيرة نسبيا أن يحقق أعمالا تظهر موهبته الفنية وحرفته العالية، فنراه الآن وقد تحرر وبشكل سريع من كوابيسه الثقيلة السود.. إلى تجسيدها عبر اللون والتناغم الموسيقي مع اختلاف الحدث، وهي رؤية جمالية وبيصرية لدراما الحياة وسؤال الإنسان الدائم بعيدا عن المباشرة والشعارات الزائفة.

والفنان زياد حيدر تخرج عام ١٩٧٦ من اكااديمية الفنون الجميلة- بغداد وشارك في العديد من المعارض داخل العراق وفي عدة بلدان عربية واوروبية. وفي لقائنا هذا، يتحدث بروية الفنان الجاد والمتجدد الذي يريد أن يتعاشق بتنافس وحوار مفيد مع عدة ثقافات ويطابع إنساني وفني بحث.

اللوحة أفتها الخاصة

منذ اقامتك القصيرة في هولندا استطعت خلالها اقامة معرض مشترك مع أحد الفنانين الهولنديين المشهورين، ومجموعة معارض مشتركة مع فنانين عراقيين وعرب واوروبيين في هولندا وخارجها، يأتي ذلك بعد انقطاعك وفترة طويلة على اقامة آخر معارضك الشخصية في العراق، ترى هل هي تابعة من أسباب تتعلق بالرؤية، أم بمساحة الحرية المتاحة للفنان بالتعبير والطرح، والشاهد المستمرة.. ومدى تأثيرها على تطور اداء الفنان؟

- خلال فترة اقامتي القصيرة نسبيا.. هنا في هولندا، والتي تبدو لي المحطة الأخيرة.. بعد سلسلة من المحطات، أحسست أن فرضا عديدة متاحة للعرض والانتاج، بعد توفر الشروط الإنساني اللائق.. في هذا البلد الصغير-جغرافيته، والكبير في تاريخه الفني، فهو بلد مبررات وفان كوخ وموندريان. لقد لمست هنا اهتماما خاصا من قبل المعنيين في الفن.. اهتماما ففتقده منذ زمن أو منذ دهون اهتماما نابعا، ليس لوصول اليه الأسفاف ومعدود انصاف المواهب وتبوؤهم سلطة الفن والثقافة في العراق لفترة جاوزت القديين، وهنا تنلمس ثمار حرية الفنان وانعكاسها على اعماله، وقد استطاع الفنان زياد

الثقافات الأخرى وخاصة ثقافات وفنون الشرق.

استطلعت خلال هذه الفترة أن أوسس وضعا فنيا مختلفا عما كان عليه في بغداد، من خلال التواصل والاطلاع على المنجز الفني الهولندي الكلاسيكي والمعاصر.. ومن التواصل مع بعض الفنانين الهولنديين والعراقيين بسبب توفر المناخ والشروط الإنسانية بحرية العمل الفني. وتلقيت العديد من الدعوات للمشاركة في معارض ومهرجانات، واقمت معرضا ثنائيا مع الفنان الهولندي (فان دايك) بدعوة من كاليري (سيركل) في هولندا.. وكانت ثيمة المعرض عن موضوعه الحرب وتضطهيا في ذاكرة الفنان، حيث عاصر



بشكل عام يمتلك حرفة عالية وسيطرة على خاماته، وهي في أغلب الاحيان خامات تقليدية متعارف عليها، بسبب من عزلة الفنان لعقود عن مجرى تطور الحركة الفنية في العالم، وانقطاعه عن التواصل مع العالم الخارجي، إضافة إلى وجود خزين من الخبرة لدى الفنان العراقي في التحاور والمواكبة لتيارات الفن الحديث التقليدية.. رغم تلك العزلة، فالتحاور هذا يتم غالبا بجهود فردية وغير قنوات محدودة.هذا الانقطاع وتلك المحاولات في التواصل، موضوعة مهمة وخطيرة في تناول قضية تفاعل الفنان العراقي المغترب حديثا مع ما يراه من تطور كبير على صعيد الاساليب والخامات وتطور طرق العرض، إضافة إلى التفاعل مع التشكيل الأوربي المعاصر. لذا أجد أن الفنان العراقي هنا يعاني في البداية من فارق كبير وتأخر واضح في الزمن والمادة وطريقة التعامل مع الموجودات البصرية، وكيفية تحسسها والتعامل معها، عبر رؤية معاصرة تتسجم مع التطور التكنولوجي الهائل الذي حصل في غفلة عنا.. أخذين بنظر الاعتبار التغيير الحاصل بين رؤية الفنان الأوربي والفنان الشرقي، بسبب من طبيعة المقتربات والمرجعات الحضارية لكل الحضارتين الأوربية والشرقية.

إلا أن السمتين الأساسيتين اللتين ذكرتهما، وهما امتلاك الفنان العراقي المغترب حديثا (حرفية عالية.. وخبرة في التخزين المتراكم) في التحاور والمواكبة والرؤية المتقدمة التي يمتلكها، إضافة إلى هذا وهو الأهم، وجود الفضاءات الواسعة في حرية العمل والتعبير، والاحساس في التعامل مع اوساط فنية متقنة وحضارية، تحترم الفعل الثقافي والفني وتتعامل مع الفن باعتباره انجازا إنسانيا متساميا، وليس اداة لخدمة المؤسسات الاعلامية.. كل ذلك يجعل الفنان العراقي قادرا على ايجاد لغة معاصرة للتحاور والتعايش مع المنجز الأوربي.. ونستطيع أن نستدرك ذلك من خلال خارطة الفن العراقي المغترب حديثا.

عملية الانقطاع التي حصلت لي والابتعاد عن خارطة الفن التشكيلي العراقي في الداخل بشكل مؤقت في السنوات الأخيرة هي لأسباب تتعلق بالرؤية الفنية، ولها أسباب بحرية التعبير، والمساحة المتاحة للفنان بالتعبير وطرح رؤاه الخاصة.. ولو افترضنا ذلك فاننا نعني بالمقابل.. أن يكون (الأخر) الذي يمتلك (سلطة) على الثقافة متقفا، ويعي تماما ما تعنيه موضوعه الحرية في الثقافة وما تشكله من خطر على (سلطته) تلك، اعتقد أن هذا الافتراض غير موجود، بمعنى أنك وباتتالي فهي تخشى الثقافة ذاتها، وليس الحرية المتاحة في التعبير داخل

ثنائية الضوء والعممة

الفنية، فالفنان يرى أنه بإمكانه أن يتخلى عن كل شيء أثناء احتفالية الرسم باستثناء الذكرة باعتبارها لا تمثل الا السند والمكروه من التجارب والرؤى والأفكار، غير أن المخيلة تبقى ذلك المنجم المغري الذي لا يستطيع أن يخطأ إلا المبدعون الحقيقيون المسكونون بهاجس الغائرية والتفرد والاستثناء. فالابداع هو محاولة لاقتضاض الجزء الا مرئي من المخيلة المدهشة، لكنه ينتشل نفسه من هذه الهلثة غير المقصودة — حينما يقول — انني أحاول أن أشحن هذه الذكرة باستمرار، وهنا يلتقط الفنان الخيط الضائع، ويمسك بعصب التجربة النابض، فشنحن الذكرة لا يتأني الا عن طريق المخيلة.

فالفنان مدعو لمراجعة طروحاته النظرية بما ينسجم مع رؤيته الجمالية التي يصبو لتحقيقها. أما المحور الثاني، فهو ثنائية الضوء والعممة، والذي أعده أهم المحاور في تجربة زياد حيدر الفنية، لأن فلسفته الحياتية ووجوده الفني قائمان على هذه الثنائية التي نستطيع من خلالها أن نتوقف عند نتاجاته التي عرضها في عمان — دمشق -بلجيكا — فنلندا — وبولندا — وفي بعض المدن الهولندية وفي امستردام حيث يقول (فالفنان مأخوذ بجذلية الضوء والعممة، فثمة عالم مبهرج تتقاطع فيه اقواس من الألوان البراقة، يقابلها عالم شديد في عتمته، وما بينهما فضاء رمادي قد لا يعبر بالضرورة عن خصائص التقضيين..

غير أن الفنان المقبل من اطلال ام ايشين يحمل بين طيات روحه تلالا من الحنين إلى ذلك الحزن الشفيف الذي لا يدركه الا الواقعون في أعلى درجات الوجد الصويغ. أما المحور الثالث الذي يؤرق ذاكرة الفنان فهو احساسه بأنه — مهمش خارج الذاكرة أو ملقى خارج المتحف — الأمر الذي يحفرنا على مراجعة مقولة بيرجر التي استند اليها الفنان زياد حيدر فيقول (لن يتيرنا وجود نثال في متحف ما بقدر ما يتيرنا أو يستفزنا وجوده في حفرة على قارعة الطريق، ففي الحالة الأولى هو شكل قائم بذاته.وفي الحالة الثانية استحال الى موضوع يتير

عذبات حسيت أحمد تتميز تجربة الفنان زياد حيدر بالبحث في المناطق الا مرئية من أعماق الأنسان، فضلا عن همه الوجودي نراه يغوص الى أعماق الذاكرة، ويفتض عن جرائها عن نثار الذهب المتبقي، وما خلفته الحضارات العراقية المتعاقبة من در الأفكار، وشظايا الأحاسيس المؤخرة التي تستفيق في دواخلنا لتستحضر الأفا من السنوات دفعة واحدة، فيغدو الماضي البعيد راهنا تنلمسه، ونراه وتندوق كتهمة وطراوته، وتستشرق المستقبل البعيد وكأنه الحاضر الذي يتمرر أمام أعيننا كيقين دامع. وللفنان زياد حيدر رؤية كولاجية عميقة، فهو ينظر الى هذا العالم المضطرب وكأنه قائم على فكرة التقطيع والتصليق، فببر المزاجية والتوليف يقدم لنا الفنان انجازاته التشكيلية التي عادة ما تلتفت أنظار النقاد والمثقفين على حد سواء، حيث استطاع الفنان زياد حيدر من خلال تجربته الفنية الطويلة نسبيا أن يختلط له مسارا مهما في المشهد التشكيلي العراقي. وقد عرف الفنان بدابه وغفوية انتقاله من مرحلة إلى أخرى، وهو لا يستسيغ فكرة اختزال المراحل الفنية لكنه لا يخفي جرا ته في التعامل مع ملمس اللوحة وفضائها الا محدود.

لقد تأثر الفنان اسوة بمجاليله، بالحركات الفنية المتعاقبة، سواء المحلية منها أو الوافدة، ولكنه ظل حريصا على تضرده واستقلاليته وحاول منذ البدء حسب تعبيره، أن يخلق متعصفا شخصيا له، فهو يرى أن المنجز الفني تعبير عن خصوصية الفنان، الأمر الذي حفزه على أن يبحث جديا في جوهر العملية اابداعية التي لا ترخي الطبع الا للمقطعين اليها والمختلفين لأجوانها الاشكالية. فالطريق الذي اختاره شاك وملثو لكنه مليء بالمفاجآت المدهشة لأولئك الذين يتحشمون عناء البحث والتجريب والاستقصاء وزياد حيدر هو واحد من هؤلاء يبحث دائما عن المغامرة والاختلاف. وهنا أريد أن نتوقف عند المحاور الرئيسة التي ينطلق منها لترصين تجربته

بجدر الذكر ان الفنان زياد حيدر من الفنانين العراقيين الأكثر مواظبة على مشروعه الفني وكان قد اشترك في معارض عدة في هولندا حيث يقيم منذ أكثر من ٩ سنوات، هي امتداد لتواصله الفني منذ عقد السبعينيات وخلال عقد الثمانينيات حيث عرض أعماله ضمن معارض الفن العراقي المعاصر ومعارض جمعية الفنانين التشكيليين، ومعرض الكرافيك العراقي المعاصر، ومهرجانات الواسطي.

وكان للفنان زياد حيدر حضوره الفني خارج العراق قبل خروجه منه هاريا بعد ان حكم عليه بالسجن عشر سنوات قضى أربعة منها في زنازين سجن ابو غريب سيئ الصيت.وعرضت نتاجاته ضمن معارض الفن العراقي في العاصمة اليابانية طوكيو وقبرص وعمان. كما عرضت اعماله في هولندا، بولندا، سويسرا، بلجيكا، امريكا، فنلندا والمانيا ومتحف مدينة ماجدانيك البولندية الذي يضم في مجموعته الدائمة احدى لوحاته، وحصل على جوائز كثيرة. كما ان لديه اعمالا في المجموعة الدائمة للمتحف الوطني للفن الحديث ببغداد ضاعت ضمن ما ضاع في إحداث السلب والنهب.

التشكيلي العراقي زياد حيدر في تظاهرة ثقافية مهمة في أمستردام

استودام / عليا شاييم بصفاة ثابتة للفكرة وحساسية لونية عالية ينجز الفنان التشكيلي العراقي زياد حيدر أعماله لما يزيد عن ربع قرن من عمر تجربته الفنية الزاخرة. وفي طواعية هائلة للون وإمكانيات فنية متميزة يشهد له بها كل من اطلع على أعماله، يتجاوز زياد حيدر حدود ما يرسمه الى مركز ذاتي كبير في تجربة يفتح مساحتها عن الرائي، مستشرفا القيمة العظمى للفن التي هي أعلى قيمة لديه يعيش تجريبها بخصوصية فريدة وتجريبية حياتية صعبة كان للسجن السياسي فيها تصيبه الوافر.

تعدت أعمال الفنان زياد حيدر في اللوحة الفنية المعاصرة التي تتخذ من موضوعها روح الحدث والمعاناة الإنسانية الكبرى، و الأحداث الهائلة التي طغت في العراق والتي طبعت بعض أعماله ونتاجه للسنوات الأخيرة فكان العراق حاضرا بقوة وكان لزيارة الفنان لبغداد مؤخرا أثرها الواضح في إنتاجه الفني،تاركة ايضا أبعادها في انطباعات الجمهور الكثير الذي حضر الى هذه التظاهرة الفنية الكبيرة.

يمثل الجسد وتفصيلاته الأفق الذي يتحرك عبره الفنان زياد حيدر،معمدا لغة التضاد كوسيلة خطاب،اذ هو يعول على آلية الرؤية عند الإنسان كمعطي فيزيولوجي،عندما يضع اللون الأسود بتدرجاته المتفاوتة على خلفية بيضاء واسعة،فانه بذلك ينشئ فارقا حسيا بين سطحين متموضعين بجانب البعض،فالأبيض يسند التفاصيل ويعمل على دفعها الى الإمام، ولكي يسيطر زياد على تلك الآلية،يلجأ الى استخدام اللون حارة وداكنة، الأحمر والبرتقالي وبمساحات صغيرة تشغل المركز عادة وتعمل كضوء جاذبة لبقية التفاصيل، وهو بذلك يحكم قبضته على توزيع التوازن والامتداد والفرغ ويحقق قدرا عاليا من التناغم، فهو يخاطب في ألوانه القاتمة عممة اللاوعي بعتمة مائلة،تتماهي معها وتستدرجها بغية الإفصاح عن مكتوناتها الكبوتة، هذا التضاد في اللون يقابله تضاد على صعيد الشكل، فزياد يختار التكوينات البشرية المتسمة بالحركة، الأطراف، تشير الى حياتنا المعقدة وسكونية الموت والعجز عن اللحاق بتلك اللحظات الهاربة.

جهود زياد تستحق أكثر من التنويه والتناء.

لغة التضاد

